تأملات عن عام جديد:

نريد رفضا على طريقة اللاتينية الجديدة التي تستثمر التراث الغيفاري لبناء مشروع مجتمعي عادل

لم تحقق المجموعة العربية شيئا الا مراكمة الفراغ ثم الفراغ ولا نزداد مع السنين إلا ترهلا وعتها

د. سعيد بوخليط*

■ لاشك أن كل تفكير أنطولوجي في استحضار الزمان المابعدي، وتثبيت سريانه الناري بين ثنايا لحظة حاضرة تدرك ذاتها بذاتها. يفترض في اعتقادي مسألتين أساسيتين:

(1) علاقة الذات العارفة بالعالم. ثم (2) طبيعة تملك هذه الذات لأشياء هذا العالم.

حتى لا تستهويني انسيابيا لذة التجربة هاته، والتي تجعلك أحيانا تحدث ذاتك كمن يشير إلى أخرس أصم. أقول بلغة أخرى، بأننا نتحدث عن انتقال بين لحظة زمانية وأخرى انطلاقا من تفكير واع مفهوميا بلعبة التأسيسات التي لا تؤمن إلا بالبدايات والنهايات في أقصى تجلياتها التيولوجية. تجاوزا بالتأكيد لذلك، فإن اللغة الاستبصارية هنا، واستدراكا لما أشرت إليه تفترض تمثل البداهة التالية:

ـ إن الذات التي تتكلم هنا، ترتبط بمنطق هوياتي لمجموعة بشرية اسمها الذات العربية. وحتى أحدد، فإن هذا السياق بالنسبة لي يتعلق فقط باللغة. أما التأويلات الممكنة، فلن تخرج بطبيعة الحال عن رمزية هذه اللغة. بهذه الإشارة، قد تتفكك اللعبة شيئا فشيئا:

(1) علاقة الذات العارفة العربية بالعالم !

(2) كيف تتمثل هذه الذات مجرياتها ؟

أعتقد بأنه من الضروري، لتبني لغة استبصارية ومنطق تنجيمي بخصوص ما بعدية الزمان، استحضار المعطيات التالية : (1) طبيعة المتحدث (2) هويته (3) موقعه الثقافي (4) وضعيته الاقتصادية (5) رمزيته الاجتماعية.... أشياء ومحددات في رأيي مقدماتية حتى نفهم طبيعة اللغة التاوية، وأفق التأويلات المحتملة، وكذا حدود «انسجام» الخطاب في علاقته بصاحبه وآخره.

بمعنى آخر، إذا توخيت حقا فرض وصاية على القارئ المحتمل، المختلف عني وأعطي لنفسي هذه السلطة الظنية بخصوص ما بعدية زمانه، وهي لن تكون إلا تضليلا في جميع الحالات. فإن الأمر يحتم أيضا، وعلى امتداد اللعبة أن أحيط نفسي بمؤشرات تمكن ذلك الآخر من تلمس خطابي والباس لغتي الغشاء الذي قد يلائمها. المسألة، لا يحتمها ثقل إيديولوجي. بل تقوم جذريا وتأصيلا على ذلك الإشكال الأنطولوجي العويص الذي هو: علاقة الذات العارفة بالعالم ثم زخم تملك الأشياء.

لذا افترض جدلا هنا، بأن التصورات التي قد أفصح عنها بخصوص مصير العالم، إذا ترجمت مثلا إلى اليابانية أو الإنكليزية.... فإن حدود الرنين لن تكون ذات قيمة. حتى ولو كان ما أعتقده يمثل أقصى درجات العقلانية المفهومية والحداثة السياسية، وكذا الثورية البناءة المفتحة التي لا تقنع بأي شيء سوى أن تعيد للإنسانية كامل مجدها....

بمعنى آخر، حينما أتحدث أنا ذلك المواطن العربي المغربي ـ المتجرد من أي انتماء سوى الحرية ـ عن ما قد يأخذه العالم من سياقات اقتصادية، سياسية، اجتماعية وثقافية... . فإنني أمارس اللعب التالي، دون وعي مني:

* سأفصح عن شعور نفسي قاتم، يظهر بأن العالم منفلت مني، إن لم يكن في غنى عني. غربة العالم هاته، تكسرت حتما عند ذاك الياباني أو الأمريكي من خلال القدرة على التملك.

* ستنزلق لغتي البرهانية باستمرار، إلى أن تبدو برنامجا مطلبيا بناء على منطق الغدية. إلحاحية ذلك، يفسره عدمية، وخواء الزمان الآني. في حين لن يكون المابعدي إلا تحويرا منطقيا بل وآليا للحظات الثلاثة التي اتفقت عليها البشرية: الماضي/ الحاضر/ المستقبل.

* ستظل لغة التكهن محتشمة؛ إن لم تكن تليدة في سياق الكائن.

استشراف العالم من ثقب صغير

* لا يحضر العالم عندي، أنا العربي في كليته. وبالتالي استشرفه من ثقب صغير.

* لن يقدر المختصون في علم الخطاب، تبيان ملاح رفيعة بين الحلم والمفهوم في نقاشي، لأن هناك قطيعة وفجوة بين ما أعيشه وما أتوخاه. وبالتالي لن تجدي هنا، لغة التدليل والتدقيق لأنه بمعطيات نظرية كتلك يصعب وضع مخططات بيانية ذات منحى خاضع لضوابط ومحددات.

يفترض الباحثون دائما، بأن الخطاب المتكهن لا يقوم على التباس حينما يضع لنفسه ضوابط علمية وآليات تنظيمية. يجعلك منذ البداية ممغنطا بأفق انتظاراته دون أدنى ريب أو تشويش. استنادا على منهج فرضي ـ استنباطي، يقوم أساسا على انسجام أرسطي بين التوليد المقدماتي وإرساء النتائج.

بناء على ذلك، إذا أردت مثلا ومن موقع شخصي يؤمن بالقيم الكبرى التي ناضل من أجلها عظماء الإنسانية: فلاسفة، علماء، سياسيون، فنانون، وعسكريون ثوريون ... . أقصد بذلك قيم: الحرية والحق والعدالة والعقل. والحديث عن ما يمكن أن تشتركه سنة 2007 مع أخواتها التي خلت أو بالعكس ما يمكن لهذه اللحظة الزمانية الجديدة أن تؤسس لذاكرة الإنسانية.

صحيح أن مقياس الحديث عن تشكلات نوعية، قد لا يتحدد إلا بعقد من الزمان، وهو ما قد يصدق مثلا في قياس تلك المسافة التي تفصل انتهاء الحرب الباردة عن يومنا هذا، حيث تجلت بوضوح أسس وفلسفة وكذا نتائج ذلك.

لقد أصبح اليوم من باب التحصيل المتكرر، الحديث عن هيمنة عمياء تسلطية للولايات المتحدة الأمريكية على العالم، نتيجة غياب قوة مقابلة تأخذ بالتوازن المفترض، كما كان الشأن مع الاتحاد السوفييتي سابقا. الحصيلة الأخلاقية، للعبة التاريخ الجديدة اختراق المبادئ الكبرى التي أشرت إليها أي: الحرية والحق والعدل والعقل. وظهور منظومة معرفية أو قيمية تسرع بالإنسانية إلى حتفها وتعيدها إلى مرحلة طفولية إن لم نقل بدائية بخصوص تنظيم علاقاتها وتقويم احتمالاتها. سنلاحظ إذن سيادة التقابلات الضدية التالية: الاستعباد أو العبودية حتى لا نتحسس فقط اللغة، الطغيان، الجور ثم الجنون. وأستسمح قصوري الأكاديمي في اللغة العربية، حتى أشير بالتدقيق إلى الأضداد. وقد كانت النتيجة بينة: اختلال في المؤسسات القانونية الدولية، أصبحت معه الأمم المتحدة بهياكلها وبرامجها مجرد واجهة لهذه الإمبريالية الجديدة التي تقودها الولايات المتحدة الأمريكية، تمرر من خلالها القرارات والقوانين باسم الشرعية والثوابت. لذا وجب التفكير جديا، من قبل القوى الفاعلة والحية في المجتمع الدولي، من أجل تصعيد خطاب الرفض اتجاه الأمم المتحدة. لأن هذه المنظمة، أصبحت فعلا مجرد باحة خلفية للبيت الأبيض. وتبدو المسألة مصيرية، خاصة مع تصاعدة التواترات الدولية. كما على الأمناء العامين المقبلين، الإحساس بمسؤولياتهم الأخلاقية الكاملة أمام ضمير الإنسانية. التاريخ لا يرحم سواء عاجلا أم آجلا. وأظن بأن كثيرا من دم الفلسطينيين واللبنانيين والعراقيين وأجناس مستضعفة أخرى، قد لطخ بالسواد سيرة أمناء هذه المنظمة!!!

أولا إشارة تكهنية، استمرار ارتفاع وتيرة العنف على المستوى الدولي وعدم القدرة على التحكم فيه، في غياب رادع قانوني محكم وعادل. خاصة، مع استمرار التوتاليتارية الأمريكية، كقوة وحيدة على المسرح الدولي وهي بالأساس ذات طبيعة عدوانية لن تعمل إلا على مزيد من استفزاز قوى الرفض. مسألة بطبيعة الحال لن تكون إلا إيجابية بالنسبة لنا نحن الشعوب المستعمرة، لكن رغم ذلك يجب الحذر من اختلاط الأوراق بهذا الخصوص وظهور مجموعة من الحركات العدمية صاحبة شعار الأرض المحروقة، ثم علي وعلى أعدائي. والتي لن تكون إلا جلدا أمريكيا آخر بخطاب قريب جدا إلى مسامعنا، أشير هنا بالخصوص في عالمنا العربي إلى مجموعة من الحركات الدينية المتطرفة، والتي تستثمر بشكل استيهامي تدمر الناس وغضبهم حيال المنظومات السياسية والاقتصادية والاجتماعية السائدة، للعمل على استنبات منظومة عنف عمياء تقوم على الخلط والالتباس بين القائم والمحتمل والممكن والمستحيل.

نريد رفضا جديدا

نريد رفضا على طريقة تلك الديموقراطيات الوطنية الصاعدة في أمريكا اللاتينية، والتي تستثمر التراث الغيفاري خاصة، في الدعوة إلى التوفيق بين الاعتزاز بالانتماء الوطني والقومي، وبناء مشروع مجتمعي عادل يعبر عن طموحات الفقراء المحرومين، مع رفض كلي للهيمنة الخارجية، مما يجعل أنظمتها الوطنية في تصادم مع الولايات المتحدة. معادلة، تتفادى الأنظمة السياسية في العالم العربي صياغة مقابل موضوعي لها. لكن يجب التذكير دائما، وعلى امتداد البحر، بأن إرادة الشعوب تنتصر حتما، لأن التاريخ لا يتكلم إلا لغة الحرية.

هناك تغير زئبقي وبوتيرة سريعة جدا في المنظومات والقيم، حيث أخذ مجرى الأحداث تطورا كيفيا يستحيل معه وضع ترسيمة نظرية ثابتة لعالم اليوم. قد أشير إلى بعض مظاهر ذلك:

(1) انهيار المفاهيم الكلاسيكية المتعلقة بالدولة والأمة أو المجموعات العرقية ... . وأصبح الاقتصاد وحده يحسم قضية الانتماءات، فهو الخيط المحرك لخريطة العلاقات الدولية. وبالتالي، تجاوز العالم اليوم رومانسيته كما كان الشأن سنوات الستينات والسبعينات. من يصنع السياسة اليوم ؟ ومعها مصير الناس، لا يخرج عن جبة أولئك الأقوياء المتكلمين اقتصاديا.

(2)الثورة الإعلامية، والمعلوماتية منها خاصة التي شهدها العالم في السنوات الأخيرة، ساهمت في الإسراع بتفعيل فكر التكتل والاندماج وإسقاط المفاهيم الكلاسيكية. أصبح العالم يتمرأى ذاته، ويحاور نفسه باستمرار. كما أن إيقاع هذه الثورة أعطى مفهوما آخر لبعدي الزمان والمكان.

(3) تجاوز الصراع الدولي بشكل من الأشكال، لذلك المنطق الثنائي الذي جادله بين الخير والشر بالمفهوم الأخلاقي للكلمة. كما كان الشأن إبان الحرب الباردة، وقبل ذلك أثناء سنوات الخمسينيات والستينيات مع ذلك المد الكبير لقوى حركات التحرر الوطني، التي كانت في مجملها ذات توجه تقدمي يساري. ترى في جل بلدان أوروبا الغربية آنذاك ومعها أمريكا تجسيدا موضوعيا لكل معاني الشر. في حين جسد الاتحاد السوفييتي ـ خاصة في نموذجه اللينيني ـ والصين الماوية، مع القوى التابعة لهما أسمى معاني التحقق الإنساني. تقليد، استمر حتى أواخر الثمانينات حين سقوط جدار برلين.

اليوم أصبحت الألوان السياسية والقناعات الإيديولوجية تتغير على طريقة وصفات ماكدونالد. لأن لعبة العالم أصبحت في آلياتها تشبه تلك المربكة ولهذا بدأنا نعاين تحالفات غير مفهومة، . Puzzle تنازلات غير مبررة، وتحولات من الأقصى إلى الأقصى ... . لقد تحول هذا النظام الدولي الجديد، كما اتفق على تسميته في الأدبيات السياسية، إلى كابوس يرعب الكل. ولاشك، حينما يركب الإنسان الخوف فإن تفكيره يصاب بالشلل وبالتالي يفقد توازنه.

(4) لقد تنبأ مجموعة من الفلاسفة والمفكرين بشكل حدسي في لحظات سابقة، بهذه الشمولية الكليانية التي تحكم العالم آنيا. يكفي أن تستحضر ذاكرتي سريعا بعض الكتابات التي قرأتها بسوريالية أثناء سنوات مراهقتي ,أحيل هنا فقط على كتابات المفكر الأمريكي هربارت ماركيوز وتنظيراته للإنسان ذي البعد الواحد، أو رواية (1984) لجورج أورويل والتي استبصرت مبكرا جهنمية الماكينة الفكرية التي تحكم الإنسانية اليوم بالحديد والنار، مسألة لن تخرج عن سيرة الأمريكيين. أشير هنا بالأخص، إلى أسطوانة الحرب على الإرهاب وخلفية الاستعباد التي تحكمه.

في ضوء كل ذلك ، هل سيظل العرب عربا؟! النقاش يتحمل وجهين: بعد ان يخوض في نقاش عقلاني، وفق رؤية موضوعية متزنة لطبيعة خصائص اللحظة التي تبناها العالم من تكتل وانكماش، وتغير للمفاهيم ثم الدينامية وسرعة التحول ودهشة الموقف وانفلات للمجرى....

ثم آخر، لن ينطوي في تأويلاته إلا على كل معاني السخرية والاستهزاء من هذه الذات العربية وتعديمها، بالقطع طبعا مع كل الخطابات الفولكلورية، الشعبوية الغبية أو التي «تتغابى» إن صح التعبير ارتباطا بترسانة من الخطابات الجاهزة والأقوال المأثورة والتي تصلح أكثر لترويض ديناصورات، من كونها قد تقنع فردا يحتوي رأسه على شيء من المادة الرمادية.

عرب الفراغ

بالنسبة للوضع الأول، على العرب اليوم تذويب العواطف المجانية للغة سوق عكاظ: الأخوة، العروبة، التاريخ، اللغة، المقدس ... . لأن كل ذلك، أثبت عدم جدواه وبأنه يستهلكنا عبثا. كما أن ضعاف النفوس، وهم كثيرون عندنا بالمناسبة، يتحصنون بمثل هذا الخطاب لإبقاء تاريخنا على ضلالته. يجب أن نتكلم بلغة واحدة فقط هي: كيف لهذه المجموعة التي تمتد من الرباط إلى جاكارتا، إتقان لوغوس الاقتصاد ؟ كيف لها أن تدرك بوعي مسؤول وناضج، أن قوتها في العالم تقاس أولا وأخيرا بسطوة اقتصادها. غير هذا، لن نساهم إلا في مزيد من الاغتراب في العلاقة التي يمكن نسجها مع الأطراف التي تقتسم معنا العالم. خاصة إذا بقينا في حدود فهم دوغماطيقي لجدلية «المقدس» و «المدنس».

يسهل نعت أمريكا بأنها شيطان أو فرنسا بكونها جرثومة ... !! ـ مع العلم أن لغة الشتائم، لا تضاعف إلا من أعراض المالينخوليا ـ ولكن الأصعب هو أن يكون لنا موقع فعلي وحقيقي في تحريك دواليب السياسة الدولية. الهيمنة على العالم، تنطلق وتعود إلى الاقتصاد، ومدخل لتعضيد باقي المقومات الأخرى السياسية والثقافية والاجتماعية. لن يكون مشروعنا الفكري واللغوي ـ إن كان هناك أساس هم من هذا النوع ـ قويا وفعالا إلا بمدى نفوذنا الاقتصادي وليس بأي شيء آخر. والقانون الأممي، لن يحترم صوتنا إلا حينما نغدو قوة اقتصادية ... . حتمية الأفق، تفرض علينا كذلك، إعطاء قضايا فلسطين ولبنان والعراق والجولان ... بعدا انسانيا حضاريا، كما كان الشأن مثلا مع القضية الفيتنامية في لحظة تاريخية ما وإن اختلفت حقيقة الشروط والسياقات. لكن القصد أساسا، هو التعبئة القوية للرأي العام الدولي حول هذا الاستعمار الذي لا يزداد إلا اشتعالا كل يوم.

ـ أما المنحى الثاني، وهو تأكيد للأول. فإنه لن يخرج عن إطار الاستهلاك المجاني للغة. فالأمر تحول إلى مجرد تآكل للحبال الصوتية. هل يجب في كل آن التذكير بأن نحن العرب، نبتعد كل يوم بسرعة الضوء عن أهل العصر، إن كنا فعلا قد ولجناه! هل نتحدث عن الجمهوريات الملكية؟ أم الملكيات المطلقة ؟ أم إمارات الطوائف؟ والرؤساء القياصرة؟ وكيف لا نتحدث عن غياب كلي للمجتمع المدني مع انتفاء أدنى شروط حقوق البشر الطبيعية قبل الثقافية ! هل من الضروري التأكيد كل مرة بأننا أضعف أمة على وجه الأرض، حتى يثبت العكس. وبأننا حقا عار على أنفسنا قبل أن يشتكي من ذلك الآخرون ؟ ساستنا أغبياء، مؤسساتنا معاقل للموتى، نتشظى كل يوم من الصدء. لا تفرز مجتمعاتنا إلا الذوات المريضة ...، بأي لغة نتحدث مع العالم غير: البلادة /الانهزامية /الأنانية الإكلينيكية / العطالة / الفقر/ الوصولية / اللصوصية/ الأصولية العمياء / الولاءات المجانية / الانتهازية / الدعارة / أسواق النخاسة / المافيات الآدمية ... .

لم تحقق المجموعة الإنسانية العربية أي شيء، غير مراكمة الفراغ ثم الفراغ !! وبقدر ما تسعى المنظومات الأخرى الى التصالح مع ذاتها وواقعها ، لا نزداد نحن مع السنوات إلا ترهلا وعتاهة. إنه ليس بالجنون النيتشوي المبدع والخلاق، الذي أدخل جليد أوربا إلى دفئ دينامية الحداثة.

لا شك أن المعطيات التي أشرت إليها، تقود نفسها إلى الاحتمالات التالية:

ـ على مستوى العالم العربي:

ـ لن تزداد الأوضاع الاجتماعية والسياسية، إلا سوءا وترديا مع استمرار نفس الثوابت السياسية والمرجعيات ذاتها. إن لم يتم «إبداع» تنظيرات جديدة لحقل القانون الدستوري غير: الجمهوريات الملكية / والرئاسة الإمبراطورية / وملتمس الشعب إلى الرئيس لكي يعيد ترشيح نفسه، لأنه حامي الوطن والملة / ثم نجاحه بعد ذلك باستفتاء يصل إلى 99,99 في المئة.

ـ سترتفع وتيرة الإرهاب والتدمير الذاتي، في مناخ كهذا. وغياب فعل ديموقراطي حقيقي، مع تراجع يومي لقوى معارضة وطنية فعالة تقود الشعب وتؤطره سياسيا ونقابيا. مسألة لا يستثنى منها أي بلد عربي. فالأمور واحدة، والتدجين شمل الجميع.

ـ ارتفاع حدة المقاومة الوطنية في العراق وحتمية انتصارها. كل المؤشرات تدل على ذلك، رغم حالة الفوضى العارمة التي وصل إليها الوضع هناك، نظرا لوجود أطراف داخلية وخارجية، تريد للعراق فتنة طائفية ومذهبية حتى يتم تدميره كليا. لذا يجب التفكير من الآن، بحساسية مفرطة فيما بعد خروج آخر جندي أمريكي. اللحظة لن تكون قط سلسة !!

ـ سيصلي الإسرائيليون ليلا ونهارا، ومعهم الرجعيات العربية، لكي يفقد اللبنانيون والفلسطينيون صوابهم، ويوجهوا أفواه البنادق إلى بعضهم البعض. لكي نعود بدءا إلى مدائن الانهيار والسقوط الكلي. التراث الثوري الفلسطيني واللبناني، كبير جدا بتاريخه وأبطاله وأدبياته، وقد شكل لنا دائما، نحن القابعي،ن في سراديب التفاهة نافذة على التاريخ. لذلك فإن حدس الإسرائيليين ومرتزقتها، لن يجد له مقاما هذه المرة.

ـ على الأنظمة العربية التي تضعها إسرائيل وأمريكا ضمن "قوى الشر"، تحصين نفسها بالديموقراطية وتجذيرها فعليا، قصد التصالح مع جماهيرها والتعاقد معها قصد بناء مشروع مجتمعي يقوم على المعرفة والحداثة السياسية، قادر حقا على المواجهة. فالدعوة إلى إيديولوجية الصمود بمؤسسات للرعايا والقطيع، لا يعني بالتأكيد سوى الضحك على الذقون. ومما لاشك فيه فإن السنوات المقبلة ستكون حاسمة بهذا الخصوص مع حدة الثورة الإعلامية التي نعاينها كل يوم، والتي تنمو عكسا مع وجود الاستبداد.

ـ تحولت المعارضة من القوى الحزبية التقليدية، وكذا الهيئات السياسية والنقابية إلى مجموعة من المنابر الإعلامية والفكرية المستقلة (حالتنا في المغرب مثلا). التي احتضنت بقوة وجرأة أكثر الخطاب السياسي التقدمي، كما كان يدعو إليه اليسار سنوات المد النضالي. إضافة إلى دعوات بعض المثقفين الملتزمين والذين رفضوا الدخول في مساومات سياسية، وبالتالي صمدوا الى حد الآن أمام كل أنواع المخزنة والتدجين. في حين تغني الأغلبية للسرب.

نشير أيضا في هذا المقام إلى حركة كفاية في مصر، وبعض المعارضين الصامدين بشجاعة أمام فاشية النظام العسكري الذي يحكم تونس منذ الانقلاب على بورقيبة. إضافة إلى بعض الأسماء المتنورة في منطقة الخليج العربي، والتي بالرغم من أنها تواجه ديناصورات من الفساد، فإنها لا تكف كلما أتيحت لها الفرصة على فضح ما يقع هناك.

بالالتفاف إذن حول هذه التشكلات النوعية، يمكننا تفعيل البوادر الأولى لمجتمع مدني عربي حقيقي. قادر فعلا على مواكبة ومواجهة التحديات الكبيرة جدا للعصر، والوثيرة السريعة التي تأخذها الأشياء.

ـ في ظل غياب ممارسة سياسية فاعلة ومؤسسة، لا يمكن للنماذج الاقتصادية السائدة إلا أن تكون هشة. فالاقتصاديات العربية في مجملها ريعية، ذات أنماط متداخلة حد الجنون. كما أن الاستثمارات ـ على ضعفها ـ تتجه أساسا للقطاعات ذات المردودية السريعة مع غياب برجوازيات محلية وطنية، صاحبة مشروع اجتماعي تنويري، أو طبقة متوسطة تدير بقوة عجلة الاقتصاد. السمة الوحيدة التي تميز اقتصادياتنا، هو هذا الاغتناء الفاحش للطبقة النافذة اقتصاديا، يقابله فقر مدقع لأغلب فئات المجتمع. للحفاظ على هذا الوضع، يتم توظيف كل أجهزة الدولة ومؤسساتها الإيديولوجية والمادية لتسويغ الاختلال: دين / بوليس / مخابرات / تاريخ/ مفهوم/ عصا / برامج دراسية / أحزاب/ برلمان/ نقابات ... . وكل المؤشرات تدل على استمرار دار لقمان على حالها. وستظل البرامج والمخططات، مرتبطة بحملات انتخابية أو إصلاحات ترقيعية ظرفية استنادا على إملاءات المنتديات المالية الدولية.

ـ الدولة العربية، جهاز فارغ بلا مشروع. تعيش تاريخها على قدرية اليومي. فإذا كانت الأمم الأخرى تضع لنفسها مخططات وبرامج حقيقية على مدى مئات السنين. مع مراقبة صارمة ومحاسبة دقيقة عبر آليات التسيير الديموقراطي وضبط قضائي حقيقي لأصحاب المخططات. مسألة تشمل الجميع ابتداء من رئيس الجمهورية إلى أصغر موظف. نجد عندنا ثقافة المافيات وما يتولد عنها من تسيب اجتماعي خطير. أما الحديث عن فساد القضاء، فذلك أمر يطول !!!.

ـ إحصاءات المنظمات الدولية عن التعلم بالعالم العربي مخجلة جدا تثير الغثيان سواء تعلق الأمر بـ: ميزانية البحث العلمي / عدد الجامعات / مراكز البحث / نسبة المتعلمين / مستوى القراءة/ كمية الإصدارات / المشاريع المعرفية / بنية المجتمع المعرفي / صالونات التأمل والتفكير الجمالي ... إلخ، فإن الارتسام نفسه: لا شيء. الأنظمة العربية في عمقها رجعية. بدأت أخيرا، تبشر بقيم الحداثة والتسامح، بعد الصعود الخطير للجماعات الدينية. سيبقى حديثها بهذا الخصوص فولكلوريا وإعلاميا. ولا أعتقد بأنها قادرة على تشغيل جريء ومعانقة حقيقية لآليات مجتمع الحداثة كما قدمه النموذج الأوروبي، لأن ذلك يمس بدءا مصالحها. دليلنا في ذلك، جوهر الثقافة السائدة اليوم وعينة المثقفين الذين تستقطبهم أجهزة الأنظمة للدفاع عن ثقافة واحدة، أي ثقافة الولاءات. والغسل الإيديولوجي حتى ولو أدركوا، بأنهم لا يحدثون إلا أنفسهم. أما نحن، فإننا نتوجه إلى جديد الشمس مع كل إشراقة.

فبأي جديد هذه المرة، ستحلق عندنا أيها «الشيخ نويل Noël» ؟ أقبلك بحرارة وأشد على يديك، أن تمسح بضربة سحرية هذا الزمان / الكفن وتدثرنا بزمان يكون لنا حقا.

* باحث واكاديمي مغربي يقيم في مراكش
Saidboukhlet@hotmail.com